المحور الثاني

بلاد السودان من خلال المصادر العربية

مقدمة:

بقيت افرقيا جنوب الصحراء، او ما كان يعرف عند المصادر العربية ببلاتد السودان مجهولة عن العالم إلى غاية القرن السابع و الثامن الميلاديين، ذلك ان الفضل الكبير يعود للمصادر العربية الاسلامية في التعريف بهذا الجزء من العالم الذي بقيت البشرية تحهل عنه كل شيء طيلة آلاف السنين.

أولا: اكتشاف العرب المسلمين لبلاد السودان:

إن ذكر بلاد السودان الغربي قد استعمل للتمييز بينها وبين السودان الشرقي الذي يشغل المنطقة الموجودة في جنوب مصر وبلاد النوبة. كما يذكر هذا المصطلح في التاريخ الإسلامي وخاصة في العصور الوسطي للدلالة على دول جنوب الصحراء الكبرى، للتمييز بينها وبين شمال إفريقيا التي تذكر بدويلات المغرب الإسلامي.

إن هذا التمييز يحمل في طياته دلالات حضارية أكثر منها جغرافية، تجعل المنطقتين الموجودتين في غرب العالم الإسلامي، وهما المغرب الإسلامي والسودان الغربي منطقتين مختلفتين حضاريا و جغرافيا، يفصل بينهما فضاء صحراوي واسع هو الصحراء الكبرى.
فنجد أن القزويني يحدد بلاد السودان الغربي جغرافيا بتلك المنطقة التي ينتهي شمالها إلى أرض البربر، و جنوبها إلى البراري، و شرقها إلى الحبشة، وغربها إلى المحيط.

كما يذهب ابن خلدون إلى تحديدها بتلك المنطقة التي تحد المغرب الإسلامي من جهة القبلة والجنوب، ويقول : «إن الرمال الملتهبة تمثل حاجزا بين السودان وبلاد البربر». وهو الشيء الذي يقودنا إلى أن hابن خلدون كان يعترف بوجود فرق بين المغرب الإسلامي و بلاد الغربي واللذين تفصلهما الصحراء الكبرى. ويذهب المؤرخون الأوربيون إلى نفس ما

أشار إليه غيرهم، حيث يقول المؤرخ الإنجليزي جان زجلرك: « إن الرمال المترامية التي تفصل شمال إفريقيا عن إفريقيا السوداء قد فعلت طوال آلاف السنين فعلا يكاد لا يمكن تخطيه». وهو بذلك من يجعل الصحراء الكبرى حدا فاصلا بين منطقتين مختلفتين، هما المغرب الإسلامي والسودان الغربي.

و لكن الشيء الذي يجدر ذكره هو أن بلاد السودان وإن شكلت إقليما متميزا جغرافيا، فيبقى ذكره مرتبطا بذكر بلاد المغرب الإسلامي، لأنه لم يعرف ذلك الدور التاريخي والحضاري المشهود قبل دخول الإسلام إلى المنطقة، رغم احتواء أراضيه على ثروات الدنيا المكتنزة من الذهب والنحاس والملح وغيرها.

فبفضل العرب المسلمين دخل الشريط الساحلي من السودان إلى التاريخ بعدما كان مجهولا من قبل القدماء. ذلك أنه في السنة 46 للهجرة، الموافق لسنة 666 للميلاد، أي قبل تأسيس مدينة القيروان بأربع سنوات فتح عقبة بن نافع الفهري منطقة فزان وغدامس و قسطيلية و توزر. و بعد مسيرة خمسة عشر يوما وصل إلى واحات كوار حيث أخبره سكانها بأنهم لا يعرفون حتى ذلك الوقت عمرانا، و لا حياة بشرية إلى الجنوب من هذا الإقليم.

و خلال القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد لجأ قوم من العرب والبربر إلى الصحراء الإفريقية بعدما طردوا من قبل الأمويين وبدؤوا يتوافدون دفعات على منطقة حوض تشاد أين كان يوجد طريقان صحراويان كبيران. طريق شرقي وهو درب الأربعين الذي يربط أسيوط بمنطقة الدرفور و يتجه بعد ذلك إلى الغرب باتجاه حوض تبتري والقرن الشمالي الشرقي لحوض التشاد.

أما الطريق الثاني، فهو الأقصر من الأول، و يربط البحر المتوسط بتشاد لأنه يمتد مباشرة من الشمال إلى الجنوب.

ولقد التقى هؤولاء البدو البيض مع السكان السود من (شعب الساوساو) الذين اختلطوا فيما بينهم و كونوا شعب (كانم بو)، أو (كانم بورنو) ، والتي تعني سكان الجنوب بلغة التوبو.

وتقول الرواية الشعبية أنه حوالي سنة 184 هـ/الموافق لـ 600م، قامت عائلة سفوه أو (شوا) التي تنسب نفسها إلى سيف بن ذي يزن اليمني، والذين نزحوا إلى هذه البلاد بعدما هاجروا من منطقة بورك.

وإذا كان القرن الثاني للهجرة يعد محطة اكتشاف السودان الغربي عن طريق عملية الامتزاج البشري المشار إليها. فإن الوقائع التاريخية المنقولة تؤكد بأن وجود بلاد السودان ككيان سياسي وحضاري منظم يرجع إلى فترات أكثر إيغالا في القدم مما ذكرنا، ذلك أنه منذ القرن الثالث للميلاد وجدت في السودان الغربي مملكة منظمة سياسيا وهي مملكة غانا، ولكنها لم تسجل تلك الشهرة و ذلك الصيت إلا مع حلول القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، أي بعد سبعة قرون من نشأتها كإمارة.

لذلك نقول بأن القرن الرابع هـ/العاشر و يمثل بداية العصر الذهبي لمنطقة السودان الغربي، بحيث خرجت المنطقة من فتراتها التاريخية المظلمة وأطلت على العالم و كسبت صيتا وشهرة عالميتين و نفضت عنها غبار السنين الغابرة.

وقد ساعدها في تحقيق تلك النقلة عدة عوامل. أهمها انتشار الإسلام في المنطقة، وبالتالي عرفت المنطقة امتدادا حضاريا أوسع من حدود الصحراء والبراري. بالإضافة إلى اكتشاف أهمية الثروة التي تكتنزها من الذهب والنحاس والعبيد، ثم جاء فتح الطرق التجارية التي ربطت السودان الغربي بأشهر الحواضر في العالم الإسلامي.
و امتدت هذه الفترة لمدة تزيد على الخمسة قرون، إلى غاية سقوط آخر كبرى الممالك في السودان الغربي وهي مملكة سنغاي الإسلامية.

ثانيا: اهم انواع المصادر و كتاباتها حول افريقيا جنوب الصحراء(بلاد السودان)

1. كتب الجغرافيا و الرحلات:

أ. كتب الجغرافيا:

ولقد عرفت كتب الجغرافيا تطورا ابتداء من القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، لكن تلك التي كتبت عن افريقيا فقد بدأت تظهر جليا ابتداء من القرن الثاني للهجرة/8م اليعقوبي في تاريخ البلدان، ومع المهلبي وابن حوقل صاحب صورة الارض في القرن الرابع الهجري/10م، لكنها ازدهرت كثيرا مع الجغرافي الغرناطي الاندلسي ابي بكر الزهري خلال القرن سادس للهجرة/12م في كتاب الجغرافيا، والادريسي في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الافاق الذي تميز بدقة المعلومات والمواقع الجغرافية بالنسبة لبلاد السودان فكانت معلوماته بمثابة ثورة في المعلومات حول بلاد السودان.

ثم ابن سعيد المغربي القرن العاشر للهجرة/13م في كتاب الجغرافيا الذي يعدّ من الكتب المهمة التي تحدثت عن الاقاليم السبعة للمعمورة وما تحوي من المدن وغيرها من المظاهر الجغرافية. يعدّ من الكتب المهمة التي تحدثت عن الاقاليم السبعة للمعمورة وما تحوي من المدن وغيرها من المظاهر الجغرافية والتي خصص فيها جزء مهم لبلاد السودان الغربي.

ب. كتب الرحلة والمسالك:

اختلفت كتب الرحالة في مسمياتها ا فقد عرف هذا العلم تطورا خلال مراحل ازدهار الدولة الاسلامية، فنجد هناك من أطلق على هذه المؤلفات اسم "سفرنامة" ، وأحيانا "المسالك الممالك"، وهناك من اطلق عليها اسم كتب لرحلة, وقد تطورت هذا العلم مع رحلات الحج والتجارة و تطور علم الفلك، فكان التجار و الحجاج يكتبون مذكراتهم و يومياتهم والمناطق والمناطق التي مروا منها و الشعوب التي صادفوها واحوالهم وعاداتهم، فعرفت المسلمين بالدول المجاورة لهم و حتى البعيدة رغم ان دقة معلوماتها كانت متفاوتة وبدرجات مختلفة.

فقد عرف القرن الرابع تطور المعارف والمناهج الخاصة بتوثيق المعلومة وتقديمها للقارئ وخاصة مع المسعودي في كتبه مروج الذهب ومعادن الجوهر، كما ظهر علم قائم بحد ذاته خاص بتدوين الرحلات وهو علم المسالك والممالك الطي يجمع بين الرحلة والجغرافيا والذي ظهر جليا مع الاصطخري في كاتبيه صورة الارض المسالك والممالك خلال القرن الرابع للهجرة/ 10 ميلادي، ثم تطور من حيث المنهج والترتيب و العمل الموسوعي في نفس القرن عن طريق ياقوت الحموي في معجم البلدان.

وخلال القرن الخامس للهجرة/11م عرفت المصادر العربية ثورة حقيقية في المعلومة بخصوص بلاد السودان من خلال كتاب المسالك والممالك الذي الفه الاندلسي ابي عبيد الله البكري، والذي قدم معلومات غزيزة ودقيقة وجديدة حول بلاد السودان الغربي ومسالكها وشعوبها وأحداثها التاريخية التي لم يسبقه اليها أحد.

بينما شهد القرن الثامن للهجرة/14م، أكبر مرحلة لانتشار كتب الرحلة التي كتبت عن بلاد السودان الغربي من خلال رحلة ابن بطوطة التي عنونها بتحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، والتي زودنا بمعلومات دقيقة و غزيزة حول مملكة مالي التي زارها في عهد الملك منسا سليمان.

ج. كتب التاريخ:

يعد ابن خلدون الذي خصص الجزئين السادس السابع للحديث عن ممالك السودان الغربي وخاصة مملكتي غانة ومالي، اكبر و اهم مصدر عربي عن بلاد السودان الغربي، حيث استقى معلوماته من الحجاج الذين مروا بالقاهرة في طريقهم الى الحج واستفاد من منصبه كقاضي القضاء المالكية في سلطة الناصر قلاوون.

وعاصر ابن خلدون مؤرخ موسوعي اخر وهو ابن فضل الله العمري الذي الف كتابه الموسوعي مسالك الابصار في ممالك الامصار، الذي خصص الجزء الخامس منه للحديث

عن السودان الغربي وخاصة مملكة مالي، بما توفر له من معلومات بحكم منصبه في قصار السلطان الناصر قلاوون و علاقته الجيدة مع الحاجب.

واذا اضفنا اليهما المقريزي في كتبه الذهب المسبوك فيمن حج من الملوك و كتاب اللسلوك في معرفة الدول والملوك ومعجمه الخطط المقريزية التي خصص الجزء السابع منه لبلاد الحبشة, و إذا أضفنا لها كتاب صبح الاعشى في صناعة النشا للقلقشندي، و التي رغم انه استقى معلوماته في معظمها من العمري و التي زوجت القارئء بمعلومات مهمة عن افريقيا جنوب الصجراء و خاصة لاولئك الذين لم يطلعوا كتاب ممالك الابصار للعمري، فإننا نقول بأن القرن الرابع عشر يعد قرن الازدهار في الكتابات العربية حول بلاد السودان الغربي خاصة وأنه عاصر مملكة مالي في اوج ازدهارها و اكبر عملية حج تمت في التاريخ و التي قام بها الملك منسا موسى سنتي 1324و1325م.